

الأيديولوجيا المعتدلة.... ولدت دولة معتدلة سلطنة عُمان نموذجاً...؟

د. عبد الجبار العبيدي

من الصعوبات التي تواجه الكاتب في موضوع ما ، خاصة اذا كان موضوعاً عاطفياً ، و اراد ان يكون موضوعه علمياً متجرداً، لأن العاطفة تشمل الباحث نفسه ايضاً ، فكيف الحال اذا كان البحث فكرياً وعاطفياً في آن واحد . فإنه من العسير جداً على الباحث المتجرد ان يصل الى نتائج يعترف بها الكثيرون، ويظن أنه قد توصل الى حقائق علمية ثابتة. وهذا ما اشعر به عند بحثي عن الاباضية كفرقة اسلامية بدأت كحركة بسيطة حول خلاف او نزاع في موقعة حربية ، وبعد ذلك تعقدت وتطورت وأصبحت ذات أفكار لها شأنها في حياة الانسان المسلم من العلماء المؤلفين والشعراء البارزين الذين تركوا لنا مكتبة واسعة في الفكر الاسلامي والادب العربي . وكونت دولة في عُمان استطاعت ان تجاري الزمن علما وثقافة وتقدماً .

من هنا تظهر اهمية دراسة حركة الفرقة الاباضية وامثالها من الدراسات، بل يتجلى لنا من خلال دراستنا مراجعة المؤلفات التي سبقتنا في مثل هذا الموضوع حيث تظهر لنا الكثير من الاختلافات في الراي حول هذه الفرقة ، حركة تاريخية وموضوعاً ثقافياً وظاهرة اجتماعية لها كبير العلاقة والاتصال بالسياسة أيضاً. ومن هنا ولكثرة الاختلافات سواء كانت صادرة من المذاهب المعترف بها او الفرق التي لازالت واندثر قسم منها وبقي البعض الاخر ، أنها من أهم وسائل الهدم والتخريب للعقيدة الاسلامية وهذا غير صحيح ويحتاج الى تدقيق واعادة نظر، لان كل موضوع صادر من العقل ويتميز بالعمق والشمول لا بد وان يكون عرضة لاختلاف آراء المعتنقين او المنتمين الى هذا الدين الاسلامي الحنيف ومبادئه روحاً وشكلاً بعد ان فرقه الفرق. ولذا كان من بين الطوائف المختلفة طائفة تنزع الى الاجتهاد وتدعو اليه ولكن بشروط ليست يسيرة ينبغي ان يتصف بها المجتهد قبل اتخاذ طريق من الطرق والوسائل التي تنتمي الى الاصل الام في الديانة الاسلامية وفتحت باب الحوار المستمر للوصول الى أفضل النتائج السياسية في حكم الدولة. ولذلك يمكننا اعتبار تلك الاختلافات الاجتهادية القيمة التي تعتمد على المنطق وتستمد واقعها من التجرد والنزاهة والاعتدال، انها لا ضير ولا خوف منها على الاسلام، وإنما هي ثراء ينمي العقيدة الاسلامية ويجدد فيها الروح والفكر عبر الزمان ،بينما بقيت غالبية الفرق الاسلامية تفنقر الى هذا التوجه العقلاني الرصين .

ونحن في الوقت الذي نعترف بأن هناك من النزعات والاتجاهات التي طرأت على الاسلام كدين، وأخذت طريقاً منحرفاً عن أصوله الجذرية. فإنه يصدق عليها الآية الكريمة(اما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض،الرعد 17). ولذلك فقد زالت بعض تلك التيارات أو النزعات بأصحابها مثل الكيسانية والمسلمية والازارقة (أنظر مخطوطة الورجلاني،الدليل لأهل العقول ص15) . وغيرها من النزعات الاخرى ، وبقيت الكثير منها تعاني الفرقة والخصام وعدم الاستقرار ولم تقدم لمعتنقيها سوى التخلف عبر الزمان .

الاباضية والاعتدال:

ولعل من اول اسباب بقاء الاباضية الى القرن الحادي والعشرين - قرن الحضارة الفكرية المتقدمة - على الارجح هو الاعتدال الذي تميزت به أيديولوجية هذه الفرقة عن باقي الفرق الاخرى، كالأزارقة والنجدات مثلاً والتي أتخذت من العنف وسيلة لتحقيق أهدافها كما في القاعدة السلفية اليوم والتي فشلت فشلاً ذريعاً في ان تجبر الناس على الاعتقاد بمبادئها والاعتناق لها ، وربما يظن أو يتوهم بعضنا بأن الاعتدال مرحلة سهلة الوصول اليها أو يسيرة التحقيق، لان الاعتدال كما نعرف هو من الصعوبة بمكان في حياتنا الفردية تطبيقه ،حيث تسيطر على الانسان مجموعة من النزعات والانفعالات الكامنة أو القوية فتأخذ بيده نحو الانحراف او الخروج عن مرحلة الاعتدال ،والذي يدلنا على قيمة هذه المرحلة وصعوبة التحلي بها هو ما جاء على لسان أفلاطون في محاورته لطلابه حين سأله احدهم عن (السعادة) فأجابته بكل هدوء واستقرار وبصوت دقيق وهادئ من أعماق فكره : السعادة يا بني هي الاعتدال في كل شيء، (انظر محمود اسماعيل-الخوارج في بلاد المغرب ص31-33). وهذا ما أكد عليه القرآن في نظريته العالمية ، بقوله تعالى(ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ،الاسراء آية

(29). إذ لم يقصد هنا في غل اليد وبسطها الجانب المالي والاقتصادي فحسب وإنما يشمل جميع مطالب الحياة وآفاقها البعيدة والقريبة. فهل من دولة مارست التطرف واستطاعت ان تبين كيان...؟ لك في المغول والمانيا النازية مثلاً...؟

ويجدر بنا ان ننبه السامع والقارىء الكريم الى ان الاية الكريمة قد وردت بصيغة النهي وليست كما وردت بالصيغة التي جاءتنا من افلاطون ، فقد كانت صيغة خبرية تحتل الخطأ والصواب اذ بين الصيغتين فرق لا يخفى على السامعين او القراء الكرام .

ان ظاهرة بقاء فرقة الاباضية ومواكبتها لمختلف العصور الاسلامية منذ النشأة الاولى وحتى الان في تكوين دولة عصرية مستقرة ومتقدمة دليل واضح على طواعية فكر هذه الفرقة ومدى فائدتها للانسان المعتنق لها وتحقيق متطلباته الحياتية.

الاباضية وما سمي خطأً بفرق الخوارج

وثمة حقيقة هامة نود طرحها للمناقشة الا وهي : لماذا تلاشت سائر الفرق التي سميت بالخوارج خطأً سواءً على المسرح السياسي او الوجود الجماهيري منذ قرابة نهاية القرن الثالث الهجري ، بينما ظلت الاباضية وعمرت سواءً في كيانات مستقلة نافحت عن وجودها رغم ضراوة الصراع مع الحكومات الاسلامية المتعاقبة ، بل ان السؤال الجوهري الذي يطرح نفسه – في هذا الصدد- هو لماذا ظل المذهب الاباضي الى اليوم مذهباً لجمهور لا بأس به من المسلمين سواءً في المغرب أو في عُمان؟ .

ان هذا السؤال لا ينطلق من فراغ خاصة اذا علمنا ان أهل سلطنة عُمان ما زالوا لحد الساعة اباضية ، كما ان المذهب الاباضي لا يزال له أتباعه في شرق أفريقيا وليبيا والجزائر وتونس .
فإذا ما عدنا الى المغرب المعاصر نلاحظ ان جماعات من الاباضية لا تزال تعيش في كيانات اجتماعية - لا سياسية - سواءً في وادي الميزاب بالجزائر او في جبل نفوسة في ليبيا وجزيرة جربة في تونس ، وقد زرتهم بنفسي يوم كنت استاذاً في جامعة الزاوية بليبيا وربطتني علاقة طيبة ببعض متفقيها الذين يمتازون بخلق رزين وعادات وتقاليد غاية في الأخلاق والأمانة والصدق والوفاء للوطن .

ثم وهو الاهم ان سائر هذه الجماعات تشكل مجتمعات منغلقة على نفسها او ان شئت جيبوا وسط بحر من اهل السنة والجماعة والفرق الشيعية المختلفة. كما انها تنفرد بتقاليدها الخاصة وأنماط حياتها المميزة التي تشكل منها تجمعات تجارية بالدرجة الاولى تأسيساً على ان المذهب الاباضي في جوهر فقهه يحض على الاشتغال بالتجارة فضلاً عن النمط الثقافي المتميز الذي ينهل ما شاء من تراث الاباضية الفكري والروحي الثري. أنظر ابو زكريا -السيرة واخبار الأئمة ورقة 5.

والاخطر من ذلك ان هذه الجماعات تتميز فيما بينها بالوحدة في المشرق والمغرب على السواء بوشائج متينة من العلاقات الثقافية بالذات ، بينما ظلت الكثير من فرق أهل السنة والجماعة وفرق الشيعة متباينة في أفكارها واتجاهاتها العقيدية، ومختلفة في توجهاتها الفكرية ، لذا نرى ان الانقسامات الحالية في فرقهم ناتج من هذا التوجه العقيدي الخاطيء عندهم.. وحسبنا ان نردد ما سبق ولاحظه (المؤرخ ما سكري والمؤرخ سمث) من ان هذه الجماعات الاباضية المعاصرة لا تُطلع احداً من غير معتنقي مذهبها على تراث السلف الصالح من الفقهاء الاباضية، وحينما ألتقيت بسفير سلطنة عُمان في دولة الكويت عام 1986 يوم كنت استاذاً في جامعة الكويت سألته هذا السؤال، لماذا الانكماشية في المذهب ؟ فأجاب بكل وضوح : هذا هو مذهبنا ونحن مسئولون عن تطويره والاحتفاظ بمبادئه خشية تلويثه بمبادئ الآخرين .

من هذا كله ان هذه الجماعات لا تزال تعانق حلماً سياسياً طوباوياً وهو ان العالم الاسلامي سوف يتوحد لا محالة على يد امام اباضي ليملى الارض عدلاً بعد ان ملئت ظلماً وجوراً ، لكن النظرية لا علاقة لها بنظرية المهدي المنتظر أو المخلص عند الشيعة الامامية او الجماعات الدينية الأخرى. وهنا يلتقون مع فرق اسلامية اخرى في نظرية (المخلص المنتظر) - مع الفارق في التطبيق- وهذه صفة اعتقادية حقيقية مطبقة عندهم الان فلا يوجد في

دولة عُمان من هو تحت فقدان الأمان والأطمئنان والكفاية والعدل، أي العوز المادي والظلم القانوني، ومن وجهة نظر الكاتب انهم يمثلون الواقع تطبيقاً .

وللحركة الاباضية دعامتين رئيسيتين هما: الأولى، الجانب الفكري المعتدل المتميز عن فرق التطرف الاخرى ، والذي ضمن لهم البقاء والاستمرار، والثانية، التجربة التاريخية الغنية التي امتازت بها عن سائر الفرق الاخرى. فاستفادوا من ايجابياتها تاركين السلبيات.

ان فكر الاعتدال عندهم فكراً عقيدياً خالصاً تمثل بعدم تكفير المخالفين، كما انهم يحرمون دماء المسلمين وسبي ذراريهم وغنيمه اموالهم، واعتبروا دور مخالفهم دار توحيد الا معسكر السلطان فأته دار بغي. وأجازوا مناكحة خصومهم وموارثتهم وغنيمه اموالهم من السلاح والكرام عند الحرب وحرمو قتلهم وسبيهم في السر غيلة الا بعد نصب القتال واقامة الحجة كما تعتقد السلفية الوهابية. وقالوا في مرتكبي الكبائر انهم موحدون وان كفروا كفر النعمة لا كفر الملة، انظر البغدادي- الفرق بين الفرق ص82 وما بعدها.

هذا الفكر المعتدل الذي تقرر في فكرهم ومعتقدهم وحياتهم جعلتهم افضل من الفرق الاخرى قاطبة التي لازمها التطرف في عقائدها مما جعلهم من اكثر الفرق الاسلامية محبة وتقرباً من الاخرين حتى حسبهم المؤرخ (ميلر) هم اشتركيو الاسلام، انظر محمود اسماعيل -قضايا في التاريخ الاسلامي ص34-63 ، لما لاحظ فيهم من صدق العقيدة قولاً وتطبيقاً كما تميزوا بالتريث الحذر من اية ثورة لا تخدمهم او قل تخلق لهم المشاكل مع الاخرين، لانهم والاعتداء على طرفي نقبض. ان فكرهم قل نظيره عند الفرق الاسلامية الاخرى من حيث التعقل والحكمة. لذا فان دولتهم بنيت على العقل والحكمة في عُمان الحالية التي تعتبر اليوم درة تاج الخليج من حيث الأمن والاستقرار وستبقى كما أعتقد . ومن ناحية اخرى لم يشتركوا في ثورة او حركة على السلطة كما حصل في ما سمي بثورات الربيع العربي الغامضة اليوم.

من هنا نلاحظ انهم لم يحققوا استقراراً سياسياً حسب بل نموا تجارياً كبيراً مبنياً على الصدق في القول والامانة في التصرف ولقد ساعدتها الجغرافية على تحقيق هذا الهدف . أنهم رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه بعد ان تعاملت معهم اثناء وجودي في جامعات الخليج العربي . في الختام اني اطمح لدراسة مفصلة في المستقبل لهذه الجماعة الرائعة فكراً وعملاً علنا نجد طريقاً ندمج فيه بقية الفرق الاسلامية التي لازال التخاصم والتباعد يحتل النصيب الاكبر من فكرها دون سند. أتمنى لوطني العراق ان يسلك سلوك الاعتدال وبيتعد عن كل تطرف ضال.

ويبقى الاعتدال صفة الاباضية على مر الزمن والى اليوم وهو عامل مهم من عوامل تقدمها السياسي والحضاري التي تنفرد به دون الفرق الاخرى.

اما تهمة الخوارج التي الصقت بهم جزافاً، فأن التسمية اصلاً تسمية استشرافية لم تذكرها كتب التاريخ، لكن الذين خرجوا على الامام علي (ع) بعد صفين وقبل النهروان: هم كانوا من اخلص انصار الامام والمدافعين عن قضيته خصوصاً وانهم يمثلون قطاعاً متديناً، اذ ان معظمهم كانوا من القراء الذين عرفوا بالزهد والتبذل، وكانوا يرون مشروعية خلافة الامام علي باعتباره قد بويع بالخلافة بالفعل الذي اكتسب الشرعية، لكنهم خرجوا عليه حين قبل التحكيم مع معاوية فغادروا معسكره والتحقوا بموقع يقال له حروراء، لذا عرفوا باسم (الحرورية) على اعتبار انه قد فرط في حقه، لكن المصادر المعادية لهم من سنية اموية وشيعية علوية تحاول ان تحملهم مسؤولية ارغام الامام علي (ع) التحكيم اولاً، والتنصل من نتائجه ثانياً. وهي تهمة جاءت بلا دليل، انظر ابن قتيبة، الامامة والسياسة ج2 ص224، المبرد، الكامل ص 111. لكن الحقيقة لا هذا ولا ذلك، إنما الذي دفعهم على محاربتة هو سوء فهمهم للحاكمية الالهية المطلقة ومغالاتهم في التفسير، حين رفعوا شعار (لا حكم الا لله) وقد تحولت الى حاكمية مطلقة في التصرف والمحاسبة والحكم لله دون النظر الى ادوات التطبيق والتنفيذ فانهم لم يكونوا على خلاف سياسي مع الامام علي (ع) ولكن خلافهم حول المبادئ وطريقة تنفيذها. لقد استجاب الامام لهم في بداية الحوار حين قال لهم: (نعم لا حكم الا لله ولكن من ينفذ ارادة الله في الارض)، فاصروا ونفذوا الخروج مما دعى الى عزلهم اولاً ثم محاربتهم، وعندما انتصر عليهم وقتل منه الكثير وانسحب الامام الى الكوفة ندم الامام على مقاتلتهم وكان في طريق العودة يردد الاية الكريمة(عسى الله ان يجعل بينكم وبين الذين عاديتم مودة والله قدير والله غفور رحيم، الممتحنة آية (7).

وعندي انه لولا الضغط والاحاح والظروف الصعبة التي احاطت بالامام (ع) بعد التحكيم لما اقدم على محاربتهم .
وتعزيزا لهذا الرأي نلاحظ اشارة في نهج البلاغة ج 1 ص 144 طبعة بيروت ،يقول فيها الامام علي(ع) لا تقاوتوا
الخوارج -لايقصد الخوارج بالمعنى الديني لكن بالمعنى السياسي- فمن طلب الحق فأخطأه ليس كمن طلب الباطل
فأدركه ، ويقصد به هنا معاوية بن ابي سفيان .

وخلاصة الرأي ان الاباضية ليسوا بخوارج وان التسمية عموما كانت خطأ تلاقفته اقليم بعض المستشرقين الذين
لم يدركوا المعنى العميق للنص في خطبة الامام م (ع) . وسيبقى الامام والاباضية من رواد الاعتدال في الاسلام ابدًا .
ونقول اما أن الاوان اليوم لنشر الفكر الاباضي بين أصحاب الفرق الاخرى عليهم يتخلصوا مما لحق بهم من نظرة
سلبية نحو الاخرين، والتخلص من التطرف الديني والمذهبي الذي اصبح اليوم مشكلة من اهم المشاكل بين المسلمين..

والاباضية هي الفرقة الاسلامية المتميزة في تحقيق حقوق الناس دون تمييز، ومن يتابع المجتمع العماني اليوم يلمس
ان العدالة الاجتماعية قد تحققت فيه ولا يمكن لمجتمع اخر ان يحقق ما حقق المجتمع العماني قياسا في التطبيق
وخاصة في النواحي الانسانية، هذا بالإضافة الى أنهم تخلصوا مما لحق بهم من افكار العنف او ما نسميه بفكر
الارهاب اليوم الذي يتبناه التطرف، ليلتجئوا للحوار بدلا من السيف وهذه هي شروط الاستقرار في المجتمع الاسلامي
الموحد كما جاءت في دستور المدينة المغيب اليوم .

للأباضية معنى آخر في التاريخ أختبر بشكل حقيقي عظمة هذه الفرقة الاسلامية، وقوة هذه البلاد ، تمثل في وحدتها
امام التحديات المختلفة التي مرت وتمر بها منطقة الخليج العربي بخاصة والعالم العربي بعامه، وانها منطقة تقع على
مفترق الطرق البحرية المتنازع عليها بين ايران والدول النفطية ودول القوى العالمية.

ان كل هذه القوة والسمود في سلطنة عُمان الجميلة ناتج من ان أهالي عُمان ظلوا أوفياء لدينهم ، و لوطنهم ، ولمبادئهم
، ولدولتهم ، ولقيم السلام والتعايش الوطني الراسخة بينهم ، لم يعرفوا الخيانة الوطنية، ولا سرقة المال العام ، ولا
المحاصصية والكتلية في الحقوق، ولا القوانين المزدوجة في التعامل بين المواطنين، ولم تغريهم الحياة ، ولم يتعاونوا
مع الآخرين ضد وطنهم ، لم يكذبوا ، ولم يماروا في أقوالهم ، بعد ان حرموا على أنفسهم سرقة المال العام ، والأستئثار
بالسلطة، ومحاربة المجاورين وسلب اموالهم، وابتعدوا عن كل تزوير. كل هذه المثل الانسانية وضعوها اساساً في
مناهجهم الدراسية مبني على الحداثة والاستقامة، وهذا هو الأساس فتربت أجيالهم عليه، وحين سألت سفيرهم في
الكويت بمقابلة خاصة كما ذكرتها أنفأ، قلت له : كيف أكتسبتم هذه الصفات الحميدة ؟ فرد علي بكلمة واحدة لا غير :
(هذا هو ديننا) . وكأنهم يقولون بذلك : بأن مازال للأمل والتعايش السلمي مكانا بين الخليج وايران وبقية المجاورين،
نتمنى لبقية دول الخليج العربي الاستقرار والتعاون مع المجاورين ، نزع الحقد والبغضاء من قلوب المواطنين بينهم
وتجاه الآخرين ، ونحن نقول مثلهم : (هذا هو اسلامنا) . فهم في وضع بحاجة ماسة لكل الاخرين . فالثروة عمرها لم
تكن قوة مالم تملك الدولة المحبة والتسامح في العلاقات الطيبة والعدل مع نفسها ومواطنيها ، ومع المجاورين .

هكذا نسيت فرنسا وانكلترا الموقف الالاماني العدائي بعد الحروب الكونية الثانية نتيجة خلافهما على منطقتي الزاس
واللورين الحدوديتين بينهما ، لتعود أمة واحدة قوية بين أمم العالمين . أما كان بمقدور العراق ان يسلك نفس السلوك
مع الكويت العربية ويتجنب أهات ومصائب الحروب ، وتقابله الكويت بالمثل، بعد ان خسروا الكثير ، والتي جرت
علينا كل هذه الاشكاليات التي لازالت تعاصرنا الى اليوم؟ كان بإمكانه لكن النفس البشرية التي يتحكم فيها الشر لا
تملك حكمة السنين. ان العرب مع الاسف لازالت العداوة بينهم قائمة دون دليل.

هل استطيع أن اقول ان لهذه البلاد العُمانية أستثنائية خاصة بها ؟

أظنها كذلك .

